مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (8)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (8) 2013

صورة الدّهر في شعر الموالي في العصر الأمويّ

الدكتور عبد الكريم يعقوب*
بثينة زهيرة**

(تاريخ الإيداع 27 / 10 / 2013. قبل للنشر في 28 / 11 / 2013)

□ ملخّص □

تتيح لنا النصوصُ الشعرية, بصورة عامة, فرصةَ اقتحام عالم الشاعر الخاص, ومقاربةَ واقعه, بفضل ما يحمل هذا الشعر من صور تتستر وراءها, في الأغلب الأعم, شخصيةُ الشاعر, وما تختزن هذه الصور بين عناصرها من نظرات تأملية تنبئ بالعِبر التي تعدّ محصلة تجارب ذاتية, وخبرات خبرها الشاعر في هذه الحياة.

ولشعر الموالي خصوصية تتأتى من طبيعة الحياة التي عاشتها تلك الطبقة, والتي فرضتها ظروف الولاء والتبعية, وانطلاقاً من رغبتنا في الكشف عن علاقة الشعراء الموالي بدهرهم, فإننا سنتوسل بصورة الدهر في أشعار تلك الفئة, لعلها ترشدنا إلى تلك العلاقة, وتخبرنا بردة فعلهم تجاه الزمان وتبدله من جهة, وتجاه ما خلّفه دهرهم من مشكلات اجتماعية ونفسية في حياة أبناء تلك الطبقة الحادثة في المجتمع الأموي من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية : الصورة, الدهر, الموالي.

* أستاذ– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.
** طالبة دراسات عليا(ماجستير)– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (8)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (8) 2013

The Image of Time in *the Mawaly's* Poetry in the Ummayyad Age

Dr. Abdulkarim Yakkoub*
Bouthaina Zuheira**

(Received 27 / 10 / 2013. Accepted 28 / 11 / 2013)

□ ABSTRACT □

Poetic texts, in general, give us access to the poet's intimate environment and enable us to approach his reality, because they contain images, mostly concealing the poet's personality and reflecting, through their varied aspects, contemplations, that convey messages drawn from the personal and public experiences encountered during the poet's life .

The uniqueness of *the Mawaly* poetry is attributed to the life-style they experienced as a social class, brought about by loyalty and subordination. Given that the objective of this paper is to explore *the Mawaly* poet's attitude towards time, an attempt is being made to shed light on this attitude and discover their reaction against time and its fluctuations on the one hand as well as the socio-psychological problems that time had imposed upon members of this nascent class in Ummayyad society on the other.

Keywords: Image; Time; Mawaly

* **Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**
****MA, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدّمة :

لم ينسجم كثير من الموالي وطبيعة الحياة في المجتمع الأموي, مما أثّر في علاقة المولى بدهره, وقد كان الشعر فرصة سانحة للولوج إلى عالم الموالي الخاص, لعلنا نستطيع بالصور المبثوثة داخل هذا الشعر, الكشف عن خبايا نفوسهم. وصورة الدهر جزء رئيس من هذه الصور التي ما فتئت تكشف عن جوانب مهمة في حيواتهم, وتعبر عن موقفهم من زمانهم بصورة عامة, إذ إن تبدل أحوالهم, وما تبع ذلك من فقر, وضعف, ومذلة, راح يقلقهم, ما دفع شعراءهم إلى إخراج ما في نفوسهم من مكنونات تجاه الزمن الذي غدوا يحمّلونه تبعات مشكلاتهم, ويرجعون إليه أسباب عللهم.

أهميّة البحث وأهدافه :

تأتي أهمية البحث من كونه يخص صورة الدهر في شعر الموالي بدراسة مستقلة. والدراسة ههنا لا تدعي السبق في الولوج إلى عالم الموالي الشعري المتشعب, فشعر الموالي مبثوث في صفحات الكتب المتنوعة, و يكاد لا يخلو مصدر متصل بالعصر من أخبارهم, غير أن الدراسات المتصلة بهذا الشعر لم تقف على هذا الجانب الفني من شعرهم وقفة خاصة, بوصفه جانباً فنياً ذا بعد موضوعي لدى فئة اجتماعية لها خصوصيتها في المجتمع العربي بصورة عامة, والمجتمع الأموي بصورة خاصة, إنما تناولت شعرهم بوصفه جزءاً من مكونات الشعر في العصر الأموي.

منهجيّة البحث :

يقوم البحث على الدراسة النصية التي تستعين بما يحقق الغاية من مناهج الدرس الأدبي, بغية الوقوف على مكونات صورة الدهر في شعر الموالي, وعناصرها, وأبعادها النفسية والاجتماعية .

مفهوم الموالي :

"لغةً"

"وليَ, الموالي وَرَثَة الرجل وبنو عمه...، والمولى الحليف، وهو من انضم إليك فعزّ بعزكَ وامتنع بمنعتك...، والمولى: المُعتَق انتسب بنسبك، ولهذا قيل للمُعتَقين الموالي...، والمولى مولى النِّعمة وهو المُعتِق أَنْعمَ على عبده بعتقه..., وقد تكرر ذكر المولى في الحديث، قال: وهو اسم يقع على جماعة كثيرة فهو: الربّ والمالك والسّيد والمنعِم والمعتِق والنّاصر والمُحِبّ والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمُعتَق والمُنعَم عليه...، وكل مَن ولِيَ أمراً أو قام به فهو مولاه ووليّه..."[1].

وجاء في معجم العين للفراهيدي: "الولاية: مصدر الموالاة، والولاية مصدر الوالي، والولاء: مصدر المولى. والموالي: بنو العم, والمولى: المعتق, والحليف، والوليّ. والوليّ: وليّ النعم. والموالاة: اتخاذ المولى."[2].

"اصطلاحاً":

جاء في العمدة أنّ " الموالي ثلاثة: مولى اليمين المحالف، ومولى الدار المجاور، ومولى النسب ابن العمّ أو القرابة" [3].

---

[1] – **ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, 15/407–409.**

2 – **الفراهيدي, أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد, تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي, مؤسسة دار الهجرة, ط2, 1409هـ, 8/365.**

3 – **القيرواني, ابن رشيق, العمدة, تح: محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الجيل, بيروت, ط4, 1972, 2/198.**

ومصطلح الموالي في العصر الأموي كان يقصد به جماعة المسلمين من غير العرب؛ الذين قدموا إلى البلاد العربية عبر الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس والروم وغيرهما, وقد كان بعض هذه الجماعات رقيقاً في بداية الأمر, "وللمالك أن يعتق عبده أو أَمَتَه, أي أن يرد له حريته, ولكن تبقى هناك صلة بين المعتِق والمعتَق وهذه الصلة تسمى (الولاء)، ويظل المعتَق يُنسب إلى من أعتقه، فيقولون: زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أي عتيقه, وإن كانت أنثى فهي مولاته، والجمع موالٍ, وإذا كان المعتِق من قبيلة، فقد ينسبون المولى إلى هذه القبيلة، فيقولون: مولى بني هاشم، أو مولى ثقيف, وأحياناً يعبرون عن ذلك بقولهم: الهاشمي بالولاء، أو الأموي بالولاء، وهكذا..., وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق، وإنما سببه أن يسلم رجل على يد رجل آخر، ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له"[4].

أما الموالي المعتقون من العبيد فهم قلة إذا ما قسناهم بجماعات الموالي التي دخلت الإسلام مرتبطة بأسر عربية؛ " يبغون بذلك أن يكون لهم محلٌّ في التنظيم القبلي القائم، وولاؤهم ليس ولاء عبد تحرر بل إنه ولاء حلف، ولكنه حلف بين طرفين غير متكافئين أدبياً. وهذا الحلف لا يخلو من مزايا لكل من الطرفين، فهو يحقق للموالي مكاناً في المخطط الاجتماعي الذي يستند إلى القبيلة، وفيه صيانة اجتماعية لهم مقابل خدمات يقدمها الموالي وتقوية مادية لحلفائهم العرب"[5].

مفهوم الصورة في البحث :

يعدُّ مفهوم الصورة مفهوماً شائكاً؛ إذ يحمل إشكالية لمن يريد أن يضع تعريفاً محدداً له، غير أن النقد الحديث، نظر إلى الصورة بصفتها" سمة بارزة من سمات العمل الأدبي، وإحدى المكونات الأصيلة لبناء القصيدة"6.

ويكمن جوهرها في العلاقات اللغوية التي يبتدعها الشاعر، وفي قدرته على توظيف مفرداته لخدمة الصّورة ونجاحها، والتي إن وجدت خارج حدودها لم تجسّد حالة الإبداع نفسها، ولم تبلغ المكانة التي بلغتها, وهي تتآزر بانسجام لتشكيل الصورة حينئذٍ, فالصورة "بالمعنى الأسلوبي هي تجسيد لعلاقة لغويّة بين شيئين"[7].

أما البحث فإنه سيعمد إلى دراسة صورة الدهر في شعر الموالي وفقاً للموضوعات البارزة التي تشكلت منها تلك الصورة, متوسلاً بالأساليب البلاغية المعروفة في الكشف عنها. ولأن الصورة لم تُحصر في تلك الأساليب, فستحاول الدراسة إيقاظ صور أخرى في النصوص لم تأخذ لها شكلاً بلاغياً في الظهور, وإنما تأتت من العلاقات اللغوية التي أرساها الشعراء, ومن خلال المفردات, وصياغة التراكيب, والجمل, " فقد تحمل الكلمة تصويراً, وتؤدي العبارة صورة, دون أن تتوسل بالمجاز أو بغيره من عناصر التصوير, فيرصد الشاعر عناصر واقعه في عبارات تصوّر واقعه وتترجم آماله فيعبر عن تجربته الذاتية بلغة تفاعلت فيها الألفاظ, وأعطت من الإيحاء أبعادا فنية وظلالا خاصة نبعت من تركيب الألفاظ، وترتيبها واستخدامها وتفاعل بعضها مع البعض فيبرز ما فيها من جمال وقيم خاصة لا تبدو في شكلها كوحدات مستقلة بل بتفاعلها معا، بقدرة المتلقّي على تخيّل المعاني والصور وراء الكلمات التي توسّل بها الشاعر في التعبير عن تجربته المعاشة" [8] .

ولغة الشاعر – غالباً – ما تحمل خصوصية صاحبها, وتقود إلى أفكاره الدفينة, ويصبح – استناداً إلى ما سبق– لكل شاعر معجمه الخاص، ولغته الخاصة التي يعبر من خلالها عما يعتريه من مشاعر, وتصبح الصورة مرآة تجربته،

---

[4]– أمين, أحمد, فجر الإسلام, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ط7, 1955, ص 88– 89 .

[5]– الدوري, عبد العزيز, مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت, ط1, 2005م, ص91

[6] – أبو زيد, علي إبراهيم, الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، دار المعارف, مصر, ط1, 1981م, ص241.

7– مورو, فرانسوا, الصورة الأدبية، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، دار الينابيع, دمشق, 1995م, ص22.

[8]– أبو زيد, علي إبراهيم, الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص245.

تعكس انفعالات الشاعر، وخلجاته الداخلية، ومن هنا تأخذ الصورة أهميتها في قراءة مدلولاتها للوصول إلى الشاعر "فصورته الأدبية تعبير غير مباشر عن شخصيته"[9], لذلك سنتخذ صورة الدهر في بحثنا وسيلة للكشف عن علاقة الشاعر المولى بدهره, لتعيننا في كشف أوجاع الموالي, ورصد مواقفهم من تغير الزمان, وتبدله.

وستركز الدراسة على وحدة التجربة الشعرية في القصيدة بوصفها ركيزة رئيسة من ركائز تشكيل الصورة الأدبية, وذلك انطلاقاً من أهمية هذه الوحدة في إجلاء الصورة الكلية في العمل الشعري, "ويقتضي ذلك أن تؤدي كل صورة وظيفتها داخل التجربة الشعرية التي هي الصورة الكلية, وذلك بأن تكون الصور الجزئية مسايرة للفكرة العامة أو الشعور العام في القصيدة"[10].

ولن تنسى الدراسة دور العاطفة عند شعراء الموالي في تشكيل صورة الدهر, فتلك العاطفة تملك الريادة في استنباط موقف الشاعر الفكري, إذ يَفرد ذلك الموقف ظلاله على النص الأدبي كله, وعلى كل صورة جزئية فيه, لتتجلى خيوطه بوضوح في الصورة الكلية للعمل الشعري, فصورة الشاعر هي التعبير الصادق المبعوث من الإحساس الداخلي للذات الشاعرة، والتي ستطفو في نهاية المطاف، بعد أن تعرّت من أقنعتها.

صورة الدهر في شعر الموالي في العصر الأموي :

فرضت ظروف الولاء على طبقة الموالي حياة خاصة, كان من شأنها أن تؤثر في كثير من مجالات حياتهم بأبعادها المختلفة, وقد استطاع شعر شعرائهم بفضل ما يزخر به من صور أن ينطق ببعض من معاناتهم داخل المجتمع الأموي, وأن يفصح عمّا تكنه نفوسهم من أوجاع, وزفرات, وقد شكلت صورة الدهر في شعرهم جزءاً رئيساً من هذه الصور, فكانت بمنزلة الشقوق التي حاولنا من خلالها أن ننفذ إليهم لمعرفة إلى أي مدى استطاع الموالي فيه تقبّل صفعات الدهر, ولرصد ردّات فعلهم تجاه تغيراته .

وعلى الرغم من أن شعراءهم يشكلون مجموعة, ولكل منهم موقفه الخاص من الدهر الذي قد يتفق مع الآخر أو يختلف, نراهم – في الوقت نفسه– يتحدون في صفة مشتركة هي صفة الولاء, فينصهرون – في معظم الأحيان– في شاعر واحد, لأن ما يقضّ مضجع أحدهم يؤلم الآخر, وما يسر أحدهم يفرح الآخر, ولم يتأتَّ هذا الانسجام من فراغ, بل من الحياة الاجتماعية التي يعيشونها, وحتمية المصير الذي يؤولون إليه, لذلك فإنه في الوقت الذي ستقدم فيه الدراسة صوراً متباينة لأولئك الشعراء, سنرى أن تلك الصور ستتكامل بعضها مع بعضها الآخر لتعكس مواقف من الزمان غالباً ما تكون متحدة, وتصوّر نظراتٍ لن نبالغ إن قلنا إنها مشتركة, تتلخص في الخوف من الدهر, وعدم ائتمان جانبه.

وقد استطعنا أن نتلمس صورتين بارزتين للدهر في شعر الموالي هما : صورة الدهر المتبدّل المتغيّر, وصورة الدهر القاهر.

صورة الدهر المتبدّل المتغيّر:

يبعث تبدل أحوال الدهر القلق والخوف في نفس الإنسان, وبالشدة ما لاقاه الموالي من قسوة الدهر, وتغيره! فحياة الولاء كانت بمنزلة الصفعة التي وجهها إليهم دهرهم, إذ بدل نعيمهم بؤساً, وبعد أن كانوا أصحاب أرض وحضارة, أمسوا موالي العرب وأتباعهم, وربما كان لهذا التحول في حياتهم انعكاس سرعان ما بدا واضحاً على طرائق تفكرهم في

---

[9]–**الشايب, أحمد, أصول النقد الأدبي، ص243.**

10– هلال, محمد غنيمي, النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة, بيروت, 1973م, ص446.

أمور الدنيا, فها هو ذا الشاعر المولى نُصيب بن رباح* يدرك حقيقة الدهر الذي لا يبقي على حال أحد, فيقول في عدم ائتمان جانب الدهر[11]:

ومَنْ يُبْقِ مَالاً عُدَّةً وصِيَانَةً فلا الدَّهْرُ مُبْقِيْهِ ولا الشّحُّ وافِرُهْ
ومَنْ يَكُ ذا عَظْمٍ صَلِيْبٍ رجا بِهِ لِيَكْسِرَ عُوْدَ الدَّهْرِ فالدَّهرُ كاسِرُهْ

لقد بدا نُصيب في البيتين السابقين مسلِّماً بقوة الدهر, وقدرته على تغيير حال الإنسان, فهو يرى أن الإنسان لعبة بيد الدهر, يصيِّره فيها من حال إلى حال, دون أن يستطيع ردعه, أو الوقوف في وجهه.

وبذلك تكون صورة الدهر المتقلب قد أظهرت الشاعر مكسوراً, ومهزوماً أمام قوة زمانه, والأبيات وثيقة اعتراف بعجز الشاعر أمام هذه القوة, وبفشله في الحصول على القوة التي كان يريدها أن تحصّنه ضد الدهر, وأن تؤمن له الحماية منه, فكشفت تلك العِبر التي ضمنها الشاعر أبياته عن تجاربه المريرة مع الزمان, إذ إن هذه العِبر هي حصيلة تلك التجارب, والتأمل الطويل في هذه الحياة.

لقد أطلعتنا المصادر العديدة على سعي نصيب الحثيث والشاق من أجل الحصول على حريته, وقد استطاع أن ينال مراده بعد معاناة مريرة مع العبودية[12] , وكان يأمل من هذه الحرية أن يؤمّن لنفسه صوناً اجتماعياً كسائر الموالي في دولة العرب الإسلامية, وقد منحت تلك الحرية الشاعر شيئاً من المكانة الاجتماعية المرتقبة, بيد أنها لم تنسه ولاءه. ولعل من يقرأ شعر هذا الشاعر يدرك أنه عرف حجم نفسه, فلم يجعلها تتخطى حدودها في مجتمع استطاع نصيب أن يفهم معادلته الصعبة, ولطالما ما من حل يفك عقدة الولاء تلك, جاء اعتقاد الشاعر الجازم بأن لا أهمية لشيء في مواجهة الدهر في ظل التبعية المعيشة, ولا سيما المال الذي رأى نصيب أن لا قيمة له في ردع مصائب الدهر وتقلباته, فراحت تتمّ هذه الأفكار والمعتقدات على أنه لم يستطع حماية نفسه من الزمان على الرغم من حصوله على المال الذي كان يغدقه عليه الخلفاء, والولاة الذين كان يمدحهم, والذي ظن أنه سيتحدى به زمانه.

وعلى الرغم من إيمانه بقوة الدهر, وتسليمه بها, لا يمنعه ذلك من أن يصرح مشتكياً منه , إذ يقول في مكان آخر في دهره المتقلب[13] :

وقَدْ كانتِ الأَيَّامُ, إذ نحنُ باللِّوى تَحَسَّنُ لي لو دامَ ذاكَ التَّحَسُّنُ
ولكنَّ دَهْراً بَعْدَ دَهْرٍ تَقَلَّبَتْ بنا من نَوَاحِيْهِ ظُهُورٌ وأَبْطُنُ

لقد أقلق الشاعر تقلب دهره, وتبدله, إذ حوّل أيامَه السعيدة أياماً حزينة, فبدا متحسراً على الماضي الجميل الذي كان يحمل إليه الدفء, والسعادة.

ولعلّ حنين الشاعر, وتحسره على الماضي الجميل ينّم على حزنه في حاضره, فقد حرمه الدهر ممن يحب, وقلب سعادته حزناً, فأمسى ضعيفاً, وغير مستقر, وضائعاً بين ماضيه الجميل السعيد, وحاضره المؤلم الحزين.

---

* **نُصَيب بن رباح: (...–108هـ)، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل،مقدم في النسيب والمدائح، كان عبداً أسود..، من سكان البادية، وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه. (الزركلي, خيرالدين, معجم الأعلام، دار العلم للملايين, لبنان,ط17 , 2007, 8/31–32) .**

[11] **– سلوم, داود, شعر نصيب بن رباح, مطبعة الإرشاد, بغداد, 1967, ص 92 .**

العدة: الذخيرة التي يعتد بها (شعر نصيب بن رباح ص92) .

[12] **ينظر الأصفهاني, أبو الفرج, الأغاني, إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط1 , 1994, (1 , 258).**

[13] **سلوم, داود, شعر نُصيب بن رباح, ص136.**

التحسن: التجمل وإظهار الحسن والمودّة, تقلبت ظهور وأبطن: تغيرت الأحوال وتبدلت الأيام (شعر نصيب بن رباح ص36) .

وقد صور الشاعر تقلب جوانب الحياة من حال إلى حال, بصورة تقلب الجسد بين الظهر, والبطن, فأوحت إلينا تلك الصورة بحالة عجز يظهر بها الشاعر, إذ جعلتنا نتخيل أننا أمام إنسان عاجز فقدَ قواه, فلم يعد قادراً على الوقوف, فراح يقضي حياته زاحفاً مرة على بطنه, وأخرى على ظهره, ونظن أن هذا الإنسان الضعيف يجسد حال الشاعر نُصيب عندما حرمه الزمان حبه, فأمسى وحيداً في حاضر لا يحمل معه سوى الألم, والمعاناة.

لقد قسا الدهر على نُصيب, فلم يسمح له بأن يعيش حياة مستقرة, ينعم بها باطمئنان, وسعادة مع المحبوبة, بل لا يكاد أن يمنحه لحظات من الحب, حتى ينقلب, ويغير عهده معه, فيحمل معه تقلبه الشقاء, والعذاب, ويغدو الشاعر قلقاً, ومكسوراً؛ لأنه عاجز عن مجابهة زمانه, فهو مدرك أنه أضعف منه.

ولشدة ما لاقاه نُصيب من زمانه المتقلب, راح يلوم الدهر بصوت مرتفع, إذ يقول له :[14]

أَيَا دَهْرُ ما هذا لنا مِنْكَ مَرَّةً ... عَثَرْتَ فَأَقْصَيْتَ الحَبِيْبَ المُحَبَّبَا
وأَبْدَلْتَني مَنْ لا أحبُّ دُنوّهُ ... وأَسْقَيْتَني صَبَّاً من العَذْبِ مَشْرَبَا

يعاتب الشاعر دهره بصورة مباشرة وصريحة, على تبدل أحواله, وإقصاء محبوبته عنه, فيصوره بإنسان متعثر, وقد كشفت هذه الصورة الاستعارية عن غضب نُصيب من زمانه, ونقمته عليه, وكأنه يطلب منه من خلال أسلوب الاستفهام ما هذا؟؛ الكف عن معاندته, فقد قلب حياته بتعثّره هذا, فأمسى إنساناً معذباً, وحزيناً, بعد أن كان سعيداً بقرب المحبوبة.

إن السعادة عند نُصيب معادل للحب, إذ تصفو علاقته مع الدهر, عندما يمد الشاعر بالحب, أما عندما يتغير حال الزمان, فيأخذ منه الحب, فإنه ينقم على زمانه, ويصبح في نظره أحمق, وأرعن.

ولعل نُصيب كان يريد من تصوير الدهر عندما حرمه من محبوبته بالإنسان المتعثر, أن يعكس تعثر نفسه في الحياة عندما تُحرَمُ من الحب, فبدا من خلال حرمانه هذا قلقاً, ومضطرباً, وفاقداً توازنه, وبذلك لا يلبي الحب حاجة روحية للشاعر فقط, بل يمنحه أيضاً القدرة على التصالح مع الزمان, والمكان, والذات, ويمنحه الاستقرار, والتوازن, فيتراءى لنا الحب في حياة نُصيب منارة تخلص سفينة حياة الشاعر من التقلقل, والضياع, وتهديها إلى شواطئ الأمان, والنجاة.

ولعل من أكثر ما أوجع الشاعرَ من دهره المتبدّل, وصوله إلى سنّ الكهولة, وحرمانه الشباب, إذ يقول:[15]

وكان يقودُني كَلَفٌ بِسُعْدَى ... وهذا الشَّيْبُ أصْبَحَ قَدْ عَلَاني
وَوَدَّعَني الشَّبَابُ وكُنْتُ أَسْعَى ... إلى داعِي الشَّبَابِ إذا دَعَاني
وإنْ يَفْنَ الشبابُ فكلُّ شيءٍ ... من الدُّنيا فلا يَغْرُرْكَ فَاني
ولو أنَّي بقيْتُ لِمُسْي لَيْلٍ ... وصُبْحِ نَهارِهِ يَتَدَاوَلَاني
صَحِيْحاً لا أُلَاقي المَوْتَ حتَّى ... أَدبَّ على القَنَاةِ لَأَبْأَسَاني

[14] – **شعره, ص72.**

[15] – **شعره, ص137.**

القناة: العصا, لأبأساني: لأحالاني من النعيم إلى البؤس (شعر نصيب بن رباح ص137).

أقضّ الدهر المتقلب مضجع الشاعر, فقد جعل رحاله تحط في مرحلة الكهولة بعد أن ودّعَ سنّ الشباب, وقد سمح للشيب أن يشق طريقه في رأسه, الذي راح بدوره ينذره بأفول شمس القوة.

لقد أقلق هذا الشيب الشاعر, فجعله يشعر بعجزه, وضعفه في حاضره, إذ إنّ سنّ الشباب يمثل قوة الرجل, ففيه تكمن القدرة على فعل كل شيء في الحياة, ومنها قدرته على الحب, وأما المشيب, فهو تجسيد للعجز, وغياب القدرة, وإحساس الشاعر بالعجز, فلذلك دفعه عدم قدرته على الحب إلى أن يحقد على دهره الذي سلبه القوة, والقدرة.

ولعل حسرة نُصيب على الماضي كانت بفعل أن هذا الماضي حمل بين لحظاته قدرته على الحب, إذ إن حبه لسُعدى يجسد قوة تشعره برجولته, ومكانته, وبذلك كانت حسرته على القدرة التي تجلت في الزمان الجميل الماضي, والتي أحسّ بغيابها, وفقدانها في حاضره, وربما هذا ما دعاه إلى ربط سنّ الشباب بالأمل, والتفاؤل, في حين أنه نظر إلى غير هذه المرحلة من مراحل عمر الإنسان؛ ولا سيما مرحلة الكهولة, بصفتها وجهاً آخر للموت, وقد صور انتقال الإنسان من سن الشباب إلى مرحلة أخرى بإنسان يُحتضر, فحملت هذه الصورة معها إحساس الشاعر باقتراب الموت منه, وانحسار مشاعر الأمل عنه في حاضره الذي يعيشه.

لقد اقترن الشباب عند نُصيب بالقدرة، ولا سيما القدرة على الحب, لهذا كان الحب معادلاً للأمل, والتفاؤل عنده, وأما غيابه من حياته, فراح يجسد اليأس, والقنوط, الحب عند نُصيب الحياة, والقدرة, والنشاط, وغيابه يمثل الموت, والفناء, والعجز, الحب عنده سبب رئيس للانطلاق, والفرح, والسعادة, ويشكل غيابه العامل الرئيس للحزن, والكآبة.

وقد غدر الدهر بالشاعر المولى ثابت قطنة* عندما أفقده من أحبّ, فها هو ذا يلوم الدهر الذي حرمه من المفضل ابن المهلب**, وقد عُرف الشاعر بولائه لآل المهلب, إذ كانت حياته رهناً للمعارك العسكرية, والظروف السياسية التي خاض فيها إلى جانب آل المهلب, إذ يقول:[16]

كَأَنَّ لَيْلِيَ والأَصْدَاءُ هَاجِدَةٌ لَيْلُ السَّلِيْم, وأَعْيَا مَنْ يُدَاوِيْني
لمَّا حَنَى الدَّهْرُ مِنْ قَوْسِي وعَذَّرَني شَيْبِي وقَاسَيْتُ أَمْرَ الغلْظِ واللِّيْنِ

يصور الشاعر نفسه بعد رحيل المفضل بالملدوغ الذي أثقل عليه الليل الطويل بالعذاب, فقد جرّعه دهره السّم الناقع, وحكم عليه بعدم الشفاء, عندما حرمه من المفضل, فكشفت تلك الصورة عما يلاقيه الشاعر من ألم, وعذاب من زمانه, وقد بدا من خلالها عاجزاً, لا يقدر على الحراك, إذ جعلتنا تلك الصورة نتخيل صوت الأنين المنبعث منه في ذلك الليل؛ الذي هدأت فيه أصوات الأنام, وسكنت.

وقد صّور الشاعر دهره المتقلب المتبدّل, وتبدل أحواله, بالإنسان الذي يكون مستقيم الظهر, ثم يُحنى ظهره, ولعل هذه الصورة قد حملت دلالة نفسية تنم على إحساس الشاعر بانقصام ظهره, وفقدانه قوته, ولا ندري إن كان ثابت قطنة من خلال تلك الصورة يصور نفسه حين فقدت أغلى الناس, فتجردت من قوّتها, وعزيمتها.

---

* – ثابت قطنة: (... – 110هـ)، ثابت بن كعب بن جابر العتكي، من الأزد، من شجعان العرب وأشرافهم في العصر المرواني، يكنى أبا العلاء، له شعر جيد، شهد الوقائع في خراسان سنة 102هـ وأصيبت عينه فجعل عليها قطنة فعرف بها. (معجم الأعلام، 98/2)

* * بعد هزيمة يزيد بن المهلب وقتله, اجتمع آل المهلب بالبصرة وأمروا عليهم المفضل بن المهلب, وخرجوا إلى كرمان, ويكرمان فلول كثيرة, بعث مسلمة بن عبد الملك في طلبهم, وقد اجتمعت الفلول إلى المفضل بفارس, فأدركوهم في عقبة, واشتد قتالهم إياه, فقتل المفضل وجماعة من خواصه. ينظر الأصفهاني, أبو الفرج, الأغاني (14 , 440) .

[16] – السامرائي, ماجد أحمد, شعر ثابت قطنة, وزارة الثقافة والإعلام, بغداد, 1968, ص64 .

الأصداء: ج صدى وهو الصوت, الهجود: النوم, السليم: الملدوغ (شعر ثابت قطنة ص64) .

كما كشفت صورة انحناء الدهر عن اضطراب يسود علاقة الشاعر بزمانه, وبغية الانتقام لنفسه من هذا الزمان, والحدّ من جبروته, راح يصوره بالإنسان الضعيف الذي يصل إلى نهاية عمره, فتنسلخ عنه قوته, محاولاً بذلك أن يكسر شوكة الدهر مرة واحدة, ولو كان ذلك في شعره فقط؛ لأن الشاعر مدرك أن لا قوة تنال من الدهر في الواقع؛ لأنه القوة القهارة, والغدارة.

ولعل قوله: قاسيت أمر الغلظ واللين, ينبئ بمدى تحمل الشاعر تقلبات دهره التي لم ترحمه, فهذا المدّ, والجزر مع زمانه قد أتعبه, فظهرت عليه من خلال هذه العبارة علامات الاستسلام لدهره, وكأنه يطلب منه أن يرحمه, ويكف عن التلاعب به.

ويقول الشاعر المولى إسماعيل بن يسار* في دهره المتبدّل المتغيّر, وتبدل أحواله:[17]

ولَقَدْ تَعْلَمُ سَلْمى أنَّني	صَادِقُ الوَعْدِ, وفيٌّ بالذِّمَمْ
والفَتى يَعْدُو وَيَسْرِي لَيْلَهُ	وهو في نبلِ المَنَايا بأمَمْ
بينما يُصبحُ يَوْماً ناعِمَاً	في غِنًى فاشٍ وأهلٍ ونَعَمْ
أَمَّهُ مُخْتَرِمُ المَوْتِ, ومَنْ	يكُ للمَوْتِ بأمّ يُخْتَرَمْ
فَثَوى ليس لهُ ممَّا حَوى	غيرُ أكْفَانٍ ونَعْشٍ ورَجَمْ

لقد علّم الدهر الإنسان أن يعتبر من حوادثه, فكان الشاعر إسماعيل بن يسار واحداً من الذين تأملوا في الحياة, فأدركوا كُنه الوجود, فبدا في القصيدة غير واثق بدهره, ومتوقعاً غدره, لا يأمن جانبه, مستمداً رؤيته تلك من تجارب واقعية مع الزمان؛ الذي يراه كثيراً ما يعطي الإنسان, فيغدق عليه, ويفرش أمام دروبه النعيم, لكن سرعان ما يسترد عطاياه, ويرديه حفرة الموت التي تختم نهايته.

فإسماعيل متألم لأنه قد وعى حقيقة غدر الزمان, وخيانته, وتقلبه, وعدم وفائه للإنسان, مما جعله يشعر بالخوف, والقلق من زمانه, وأفقده الثقة به, وربما هذا ما دفعه إلى نعت نفسه بالصدق, والوفاء, إذ كان هذا النعت ردة فعل على صفات زمانه, حاول بها أن يعيد التوازن إلى نفسه, وأن يردّ إليها شيئاً من الثقة.

ولعلنا نستطيع أن نلمس حالة يأس الشاعر من زمانه في الأبيات السابقة, وقد دلت عليها ألفاظ النص مثل: المنايا, الموت, ثوى, أكفان, نعش, رجم, فقد أفصحت هذه المفردات عن معاناة ابن يسار من زمانه, فشعرنا كأن هذه الأبيات تخبرنا عن صدمات تلقاها الشاعر في حياته, أوصلته إلى قناعاته تلك, فحالة الإحباط التي وصل إليها, هي نتيجة صراعات قضاها الشاعر مع الحياة, فأذاقته فيها طعم الانكسار, والذل, والانهزام, إذ يستحيل على المرء مهما بلغ من القوة أن يظن أنه قادر على الانتصار على زمانه.

---

* **إسماعيل بن يسار النسائي : (... ، نحو 130 هـ)، شاعر، أصله من سبي فارس، اشتهر بشعوبيته وشدة تعصبه للعجم، يفتخر بهم في شعره على العرب، كان من موالي بني تيم بن مرة، وانقطع إلى آل الزبير، ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان مدحه، ومدح الخلفاء من ولده بعده، عاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر أيام بني أمية، ولم يدرك الدولة العباسية. (معجم الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، لبنان، ط17، 2007م، 329/1).**

[17] – **بكار, يوسف حسين, شعر إسماعيل بن يسار, دار الأندلس, بيروت, ط1, 1984 ص56.**

الذمم: العهد, أمّ: قصد, رجم: قبر (شعر إسماعيل بن يسار ص56).

مخترم: اخترمته المنية من بين أصحابه : أخذته من بينهم (لسان العرب, مادة خرمَ, مجلد 12 , ص 172) .

ثوى: هلك (اللسان, مادة ثوا, مجلد14 , ص 126).

وربما لن نبالغ لو نحن قلنا: لقد أظهر لنا النص أن الزمان قد سلب من الشاعر القوة, والحب, والسعادة, والسلطة, وكل نعم الحياة, مستندين في ذلك إلى أن عدم رؤية ابن يسار أمامه, إلا الموت طريقاً له, ينّم على تجرده من كل ما من شأنه أن يجعله مقبلاً على الحياة؛ لذلك ظهر أمامنا ضعيفاً, ومحتاجاً, ومستسلماً لقوة الدهر التي علمته أنه لن ينال منها.

لقد جسّدت معاناة إسماعيل بن يسار في النص السابق معاناة الموالي في المجتمع الأموي بصورة عامة, التي سببتها معاملة العرب لهم آنذاك, ولعل ما جاء في العقد الفريد عن حياة الموالي يؤكد تلك المعاناة. إذ " كانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى، وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يتقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخِوان، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذ حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريراً، وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى مواليها، فإن رضي زوّج وإلا ردّ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح" [18] فقد جار هذا الزمان عليهم, وقلب حياتهم عندما جردهم من قوتهم, وسلطانهم, وعزهم, فغاب عنهم إحساسهم بالحياة, واستسلموا لدهرهم الذي راح يلعب بمصائرهم.

ويقف الشاعر المولى الحُسين بن مُطير* مصوراً دهره المتغيّر, إذ يقول:[19]

أَيْنَ أهل القِبَابِ بالدَّهْنَاءِ أَيْنَ جِيْرَانُنَا على الأَحْسَاءِ
فَارَقُوْنَا والأرضُ مُلْبَسَةٌ نو ر الأَقاحي يُجادُ بالأَنْوَاءِ
كلَّ يومٍ بأقحوانٍ جَدِيْدٍ تَضْحَكُ الأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

يستهل الشاعر أبياته بالاستفهام أين؟ ولهذا الاستفهام دلالة خاصة, إذ أوحى بحيرة الشاعر, واستنكاره ما يحدثه الدهر من تقلبات في حياة الناس, فبدا من خلاله عاتباً على زمانه المتغير, والغادر, وشاكياً قسوته, فهل هناك أقسى من أن يكون الإنسان لعبة بيد زمانه, ومكانه؟ فقد راح هذا الزمان يبث حقده في الأمكنة, فجردها من أصحابها, وهم أحبة الشاعر, وأقاربه, فغدت باردة, وموحشة, ومخيفة.

لقد بدا الشاعر مدركاً حجمه الضئيل أمام دهره, وواعياً ضعفه أمام قوة هذا الدهر؛ لذلك نراه يسعى إلى ضبط انفعاله, إذ لم يظهر في الأبيات غاضباً من زمانه, أو ثائراً عليه, وربما يدل هذا على أن الشاعر قد اعتاد تجرع العلقم من دهره, وأنه قاسى من زمانه الكثير, وعانى قسوته, وتقلبه, حتى غدا على تلك الصورة من التفهم, والتعقل.

ولعلنا نستطيع أن نلمس بوضوح محاولة الشاعر الضغط على نفسه من أجل التصالح مع زمانه, وسعيه إلى خلق صيغة انسجام معه دون أن تتشكل أية فجوة بينهما, وقد بدا ذلك واضحاً من خلال تصويره تقلبات الدهر, وتغيراته بنبات الأقحوان الذي يزهر كل يوم, إذ كشفت تلك الصورة عن رغبة الشاعر في أن يحمل إليه الدهر ما يبعث في قلبه الفرح, والسرور.

---

18 – **الأندلسي, أحمد بن محمد بن عبد ربه, العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط2 ، 1953، 326/3.**

* **الحُسين بن مُطير (... – 169هـ): الحسين بن مطير بن مُكمّل الأسدي، مولاهم: شاعر متقدم في القصيدة والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية، والعباسية، له أماديح في رجالهما، وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم (الأعلام، 260/2)، وجاء في الأغاني الحسين بن مطير مولى لبني أسد بن خُزيمة ثم لبني سعد بن مالك بن ثعلبة بن دُودان بن أسد. وكان جدُّه مُكمّل عبداً، فأعتقه مولاه، (280/16).**

19 – **الأغاني, 282/16.**

لكنّ هذا الضغط الذي حاول الشاعر أن يكبته, سرعان ما ظهرت ملامحه في الشطر الثاني من البيت الأخير, إذ إن تصويره السماء, والأرض بإنسان يبكي, ويضحك, راح ينمُّ على حالة صراع تعيشها نفسه, مما دفعه إلى تجسيدها في صورته الاستعارية تلك, ونظن أن هذه المزاوجة بين الضحك, والبكاء قد كشفت عن حالة قلق يعانيها الشاعر, سببها له دهره الذي أتعبه بتغيراته, وقد تناسبت هذه المزاوجة– في كل الأحوال– مع حالة الدهر المتبدّل المتغيّر.

صورة الدهر القاهر :

يظهر الشاعر المولى في هذه الصورة متألماً, يعاني القهر, وهذا لا يعني أن صورة الدهر المتبدّل المتغيّر قد خلت من مشاعر القهر والألم, لكن الصورة ههنا تختلف عن صورة الدهر المتبدّل, لأنها ترصد ظلماً يعانيه الشاعر من مجتمعه الذي يسهم بدوره في إيقاظ وجعه من الدهر, وترصد الظلم الذي يعانيه الشاعر المولى من زمانه, والذي حكم عليه بالعيش طويلاً تحت جناح هذا القهر.

لعلّ من أكثر ما يعذب الإنسان معاندة زمانه له, والتضييق عليه أكثر مما يتحمّل, ولا سيما إذا كان الأمر مرتبطاً بحاجة المرء المادية؛ فقد كانت مسألة الفقر من أكثر المسائل التي عذبت الموالي في حياتهم, وجعلتهم يتحسسون مشكلات الولاء, فراحوا يقارنون بين ماضيهم عندما كانوا أصحاب حضارة ينعمون في ظلالها بالخير, والنعيم, وحاضرهم الذي أمسوا فيه تابعين, فهاهو ذا الشاعر زياد الأعجم* قد تعب من كونه محتاجاً, ويئس من حالة الفقر التي تأبى أن تعتقه, إذ يقول:[20]

لَقَدْ لَجَّ هَذَا الدَّهرُ في نَكَبَاتِهِ ... عَلَيَّ إلى أَنْ ليس في الكِيْسِ دِرْهَمُ
وأَمْسَتْ جَوَاليقي, بِرَغْمِ ظَعِيْنَتي ... رِهَاناً على ما في الجَوَالِيْقِ يُعْكَمُ
وَأَعْظَمُ مِنْ ذَا أنَّ شِعْرِيَ مُعْرَبٌ ... فَصِيْحٌ, وأنّي حِيْنَ أَنْطِقُ أَعْجَمُ

يصور الشاعر الدهر بالإنسان الذي يعاند, ويزيد في عناده, وقد جاء الفعل لجَّ الذي استهلَّ به الشاعر الأبيات مؤكَّداً باللام الموطئة للقسم, وحرف التحقيق قد, ليؤكد مرارة هذا العناد, فبدا الشاعر من خلاله ناقماً على زمانه الذي لم يرحمه, وغاضباً من فقره الذي أنهك قواه, فقد استنفذ كل طاقات الصبر التي يمتلكها, وضاق ذرعاً بهذه الحياة التي يعيش فيها محتاجاً, وذليلاً, إذ لم تحمل له حاجته الدائمة, وفقره, سوى الذلّ, والهوان بين الناس.

وقد كشف الفعل الناقص (أمست) عن حالة تبدل أو تغير في حال الشاعر, وربما لم يكن المقصود به أن الشاعر كان في حالة يسر, ثم أصبح في حالة عسر, إذ لم يُعرف عنه أنه كان صاحب مال, أو جاه يوماً, بل لعله كان يومئ إلى وضعه بوصفه مولى, وإلى حياته مع غيره من الموالي في المجتمع الأموي, فقد حمل لهم وجودهم في هذا المجتمع الحرمان, والفقر, والذلّ, بينما كانوا فيما مضى ذوي عز, وسلطان, وجاه في ظل دولة الأكاسرة, فالنقمة إذاً كانت على زمانه لأنه أزال دولتهم, فزال معها عزّهم, وغناهم.

---

* **زياد الأعجم: (... – نحو 100 هـ)، أبوه أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس، من شعراء الدولة الأموية، جزل الشعر، فصيح الألفاظ، كانت في لسانه عجمة فلقب بالأعجم. ولد ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنها وطال عمره، ومات فيها ...، كان هجاء، يداريه المهلب ويخشى نقمته، وأكثر شعره في مدح أمراء عصره وهجاء بخلائهم. (معجم الأعلام، 54/3).**

[20] – **بكار, يوسف حسين, شعر زياد الأعجم, دار المسيرة , ط1, 1983, ص95.**

الجواليق : جمع الجُوالِق بكسر اللام وفتحها، وهو وعاء من الأوعية معروف ،عكم المتاع: شدّه (شعر زياد الأعجم ص95).

لجَّ: لجَّ في الأمر : تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه (اللسان, مادة لَجَجَ, مجلد2, ص353) .

وقد عبر الشاعر عن حالة الذّل التي يعيشها كل يوم من خلال استحضاره كلمة رِهان, إذ جعلتنا هذه اللفظة نشعر بأنه يحسُّ إحساساً عميقاً بالدونية, واحتقار النفس, وبأنه رهينة في يد الزمان, يلعب فيه كيفما شاء, دون أن يكون للشاعر القدرة على تحديد مصيره, وبذلك يكون فقره قد جرده من قوته, فغدا مسلوب الإرادة, وعاجزاً عن مواجهة زمانه.

وعندما يحاول زياد أن يجد في موهبته الشعرية بارقة أمل يبغى من خلالها إعادة الثقة, والقوة إلى نفسه, يجد أن الزمان قد عانده فيها أيضاً, إذ إنّ عجمة لسانه تحول دون كمال تلك الموهبة, وقد أشارت الدراسات المتنوعة إلى وجود لكنة في كلام الشاعر, فكان – على سبيل المثال– يلفظ السين شيناً, والطاء تاءً[21], فبدت لُكنته متناسبة مع تعثر حظه في الحياة, وكأنها توحي بحياة التعثر التي يعيشها بصورة عامة.

لقد كشفت صورة الدهر القاهر عن حقد الشاعر على زمانه, وعن عقدته الاجتماعية المتعلقة برغبته في امتلاك الثروة, ربما لأنه يرى في المال سلطة, وجاهاً يحارب بهما حياة الذّل التي يعيشها, فالسعي إلى المال –إذاً– هو ردة فعل على وضعه الاجتماعي المزري الذي يشعر خلاله كل يوم بالذل, والانحطاط, كما كشفت صورة الدهر القاهر أيضاً عن عقدة الشاعر النفسية, والتي لا تقل أهمية عن عقدته الاجتماعية, وهي عجمة لسانه, إذ كان يشعر من خلالها بانكسار في شخصيته, فشعرَ بأنها طعنة أخرى من طعنات الزمان, ولعل هذا ما جعله يبدو في معظم شعره كما بدا في ديوانه هاجياً, وساخراً, مما دفع بكثير من النقاد إلى الحكم عليه بأنه " عصبي المزاج، وحاد الطبع، إذ كانت أبسط كلمة تؤلمه، وأقل مفارقة تزعجه "[22] .

وهاهو ذا الشاعر نصيب بن رباح يعاني القهر الذي جرعه إياه زمانه عندما حكم عليه بالفقر, وقد بدا ألمه واضحاً عندما قال وهو يستجدي عاطفة عبد العزيز بن مروان[23] :

وإنَّ وَرَاءَ ظَهْرِي يا بْنَ لَيْلَى	أُنَاساً يَنْظُرُون متى أَؤُوْبُ
أُمَامَةُ منْهُمُ ولمَأْقِيَيْها	غداةَ البَيْنِ في أَثَري غُروبُ
تركتُ بلادَها ونأَيتُ عنها	فأَشْبَهُ ما رأيتُ بها السَّلوبُ
فأَتْبِعْ بَعْضَنَا بَعْضَاً فَلَسْنَا	نُثَيْبُكَ لكِنِ اللهَ المُثِيْبُ

تتجلى صورة الدهر القاهر في الأبيات السابقة من خلال المعاناة التي يعيشها نُصيب في سعيه وراء لقمة العيش, إذ إن فقره, وحاجته هما سبب التشرد, والتغرب.

لقد ظلم الدهر نُصيباً عندما كتب عليه أن يعيش فقيراً, ومحتاجاً, لذلك ظهر في القصيدة مهموماً, ومتعباً, فزمانه قد أثقل عليه بفقره, وقد دلت عبارة (وراء ظهري) على المسؤولية الملقاة على عاتقه, وعلى الحمل الثقيل الذي يهد ظهره.

وربما كانت رحلة العذاب, والشقاء التي ينشدها الشاعر بحثاً عن لقمة العيش تجسيداً لرحلة حياته الطويلة التي يبحث فيها عن الأمان, والسترة من أجل الاستمرار في الحياة, فغدت لقمة العيش المعادل للأمان الذي حرمه الزمان

---

[21] – **ينظر بكار, يوسف حسين, شعر زياد الأعجم, ص 15–16.**

[22] – **عطوان, حسين, الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1974م، ص324 .**

[23] – **سلوم, داود, شعر نُصيب بن رباح, ص63.**

لمأقييها: مأق العين: حرفها الذي يلي الأنف , غروب: الدموع تجري من العين واحدها غرب, السَّلوب: والسالب: التي سلب منها ولدها من الظباء (شعر نصيب بن رباح ص63) .

نثيبك: ثوّبه الله من كذا: عوّضه (اللسان, مادة ثوبَ, مجلد1, ص245).

إياه, وقد عبر الشاعر عن حرمانه من هذا الأمان من خلال حالة عدم الاستقرار التي يعيشها, إذ هو في حالة غربة مستمرة من أجل الحصول على قوت حياته.

لقد جرّت هذه الغربة, وعدم الاستقرار, العذاب لكل من الشاعر, وأسرته؛ إذ عبرت لفظة غروب عن شدة حزن أسرة الشاعر, وقلقها عليه في رحلته الصعبة, وعلى نفسها وهي بعيدة عنه, فهذه الدموع التي تذرفها, هي دموع قهر على الحياة التي تعيشها تلك الأسرة, وهي تعاني التشتت, والانقسام بسبب قهر الدهر, إنه البكاء من الشعور بالخوف من المجهول الذي تنتظره, إذ إن رحلة الشاعر صعبة, ومجهولة النهاية, وفشلها سيحتم الموت للجميع, إذاً فالخوف من الموت هو الذي استدعى كل هذا القلق, والعذاب, والحزن.

يشبه الشاعر أمامة عندما رحل عنها بظبية قد سلب ولدها منها, وقد تجلى في هذه الصورة قهر واضح تعانيه أسرة الشاعر, قد أججه رحيل نُصيب عنها, إذ يخيل إلينا منظر تلك الظبية التائهة التي لم تعد ترى لوجودها معنى دون ولدها, فهو رمز استمرارها في الحياة, والأمل الذي تعيش لأجله, وبذلك تكون قد أفادت تلك الصورة, التعبير عن حال عائلة نُصيب, وقد أصابها الخوف, والبؤس, والألم على معيلها, فحزنها عليه لم يكن بسبب غربته, والشوق إليه فقط, بل كان قبل كل شيء حزناً على حياتها التي شعرت بتقلقل استقرارها دونه, فهو يمثل لها الحماية, والأمان.

ولعل ما قلناه كان السبب في لجوء الشاعر إلى عبد العزيز بن مروان, فهو يرى فيه سيفاً صارماً يواجه به دهره, ويرد من خلال عطاياه عنه ضربات الفقر الموجعة, فنراه ينشد من خلاله الأمل, والتفاؤل في التخلص من هذا القهر الذي زعزع استقراره, وعائلته, وقد عبر عن هذا الأمل من خلال قوله: فأتبع بعضنا بعضاً, إذ أوحى إلينا هذا القول بأمله في اجتماعهم, ولمّ شملهم, فاجتماعهم يمثل قوة لهم, يشتد بها ساعدهم في تحمل غدر الزمان, وظلمه.

ويقول في مكان آخر مصوراً تغربه من أجل طلب الرزق[24]:

ألا هل أتى الصَّقْرَ ابنَ مروانَ أنني	أَرَدُّ لدى الأبوابِ عنه وأحجبُ
وإني ثَوَيْتُ اليومَ والأمسِ قبلَه	على البابِ حتى كادَتِ الشَّمْسُ تغرُبُ
وإني إذا رُمت الدَّخُوْلَ تَرُدُّني	مَهَابَةَ قيس والرتاج المُضَبَّبُ
وأهلي بأرضٍ نَازِحون ومالَهُم	بها كاسبٌ غيري ولا مُتَقَلِّبُ
فهل تُلحِقَنِّيهم بعَبْل مواشك	على الأين من نُجب ابن مروان أصهبُ
أبو بكرات إن أردتُ افتحالَه	وذو ثبتاتٍ بالردفين متعَبُ

يصور نصيب ممدوحه عبد العزيز بن مروان بالصقر ،ولعل هذه الصورة الاستعارية حملت معها إحساس الشاعر بقوة ممدوحه ، تلك القوة التي يحاول الشاعر أن يستظل بها، فتكون الصورة قد لبت حاجته إلى الحماية التي يأملها من ابن مروان .

وقد كنى الشاعر في قوله : "حتى كادت الشمس تغرب" عن طول العذاب الذي يلاقيه في سعيه إلى طلب الرزق ، فبدت صورة دهره القاهر واضحة عندما كتب عليه هذا الزمان العذاب ،والشقاء .

---

24 – **المرجع السابق نفسه, ص62–63 .**

الرتاج: الباب الكبير, المضبب: الذي له ضبه يغلق بها, عبل: ضخم, مواشك: سريع, أصهب: أحمر, البكرات: مفردة بكرة والمذكر بكر وهو الفتي من الإبل, الافتحال: اتخاذه فحلاً, الثبتات: الوثبات(شعر نصيب بن رياح ص62+63) .

ولعل هذا القهر يتضح أكثر من خلال صورة البعد التي أسدلها الزمان على الشاعر ،وعائلته ،فتصوير الشاعر حال أهله النازحين، والذين يحتاجون إلى الشاعر ، معيلهم الوحيد ،لم تسهم فقط في استجداء عاطفة الممدوح، بل عبرت قبل كل شيء عن الظلم الذي يلاقيه بفعل هذا البعد ؛ فهذا البعد يضمر الحرمان لكلا الطرفين ،للأهل والشاعر، وكل ذلك كان سببه الفقر الذي كتبه الزمان على نصيب ، فجعل حياته مراراً ،وعذاباً.

لقد كان التغرب طلباً للرزق صورة من صور الدهر القاهر التي حرمت نُصيباً السعادة, وقد سعى جاهداً في حياته من أجل التخلص منها, لكنها بقيت جرحاً يعذبه, ويذكره بضعفه, فها هو ذا يحقد على هذا الفقر الذي أسهم في عزوف الشباب عن بناته, وصدهم عن الزواج بهنّ, إذ يقول:[25]

كَسَدْنَ من الفَقْرِ في بَيْتِهِنَّ وقَدْ زادَهُنَّ سَوادِي كُسُودَا

تجمعت في البيت السابق عقد نُصيب التي رماه الدهر بها, والتي اشتملت على الولاء, والفقر, والعبودية, فبدا حاقداً عليها جميعها, ومقهوراً من زمانه الذي ابتلاه بها .

وقد صور الشاعر بناته في قوله: كسدن, بالبضاعة غير المرغوب فيها, والتي تبقى في وجه صاحبها, فدلت هذه الصورة الاستعارية على شعور نُصيب بالدونية, إذ نظر إليهنّ نظرته إلى الأشياء, وعبرت تلك الصورة – في الوقت نفسه– عن يأسه من زواجهنّ, وحزنه على كونهنّ مرفوضات, إذ لا شيء يمتلكنه ليستدعي قدوم الخاطب لخطبتهنّ.

لقد أجج فشل زواج بنات نُصيب في ذاته مشكلاته النفسية, فأيقظ هذا الفشل ما كانت نفسه تسعى إلى إخفائه, وكبته, إذ سرعان ما تذكر حياة الولاء, وما جره له هذا الولاء من إحساس بالتبعية, والفقر, والشقاء, فتجسدت في مخيلته حياة العبودية التي كنى عنها بقوله: سوادي, وما لاقاه من عذاب, وقهر بسببها, فنشعر أن هناك لوماً موجهاً من الشاعر إلى الدهر يعاتبه فيه على ما أذاقه إياه من ألم, وعناء, غير أن أكثر ما آلم الشاعر إحساسه بأنه المسؤول عن بؤس بناته, فاستطعنا أن نلمح عقدة الذنب من خلالها.

وتتجلى صورة الدهر القاهر في حرمان المرء من الحب, فها هو ذا الشاعر نُصيب يصور ظلم الدهر عندما حرمه الحب, وأبعد خطواته عن درب المحبوبة, إذ يقول:[26]

خَلِيْلَيَّ إنْ حَلَّتْ كُلَيَّةَ بالرُّبا فَذِي أَمَجٍ فالشِّعْبِ ذي المَاءِ والحَمْضِ
فأَصْبَحَ من حَوْرَانَ رَحْلي بِمَنْزِلٍ يُبَعِّدُهُ من دُونِها نَازِحُ الأَرْضِ
وأَيْأَسْتُما أنْ يَجْمَعَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَخُوْضَا ليَ السُّمَّ المُصرَّحَ بالمَحْضِ
ففِي ذَاكَ مِنْ بَعْضِ الأُمُورِ سَلَامَةٌ ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من حياةٍ على غَمْضِ

ربما جسّد ذكر الشاعر أسماء أمكنة عديدة, رحلة الضياع, والعذاب التي يقاسيها في سعيه للقاء المحبوبة, ناهيك عن أن تعدد أسماء تلك الأمكنة التي قد تَرِدُ محبوبته إليها, ينبئ بقلق نُصيب, وعدم استقراره النفسي, غير أن

---

[25] – **المرجع السابق نفسه, ص86.**

كسدن: كَسَدَ: كَسَدَ الشيء كَساداً فهو كاسِد وكسِيد ... وكسدتِ السوق تكسُد كساداً: لم تَنْفُقْ (اللسان, مادة كسد, مجلد 3 , ص 380) .

[26] – **المرجع السابق نفسه, ص100,ويروى البيت الأول: ... كلية فالربا فذا أمجٍ فالشِّعْبَ ذا الماء والحمض, ولعل هذه الرواية أصح (الأغاني 287/1).**

كلية: واد..بقرب الجُحْفة وفيه آبار..وكان نُصيب يسكنها, وكان بها يومٌ للعرب(الحموي,ياقوت, معجم البلدان,دار صادر, دار بيروت,بيروت, مجلد4, ص478+479), ذو أمج:قرية كثيرة الزرع قرب المدينة, الشّعب: الوادي, الحمض: نبات مرّ ومالح, المضرّج: المخلوط, على غمض: على إغضاء وذلّ(شعر نصيب بن رباح ص100) , حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة (معجم البلدان, مجلد2,ص317).

عدم الاستقرار النفسي هذا قد صحبه قهر, وعذاب, لتعسر ملاقاة المحبوبة, وقد عبر عنه الشاعر بذكر نبات الحمض المرّ والمالح, الذي أومأ إلى معاناة الشاعر من مرارة زمانه.

ولعل يأسه من أن يجمع الدهر بينه وبين من يحبّ ناتج من يقين أن دهره قد قهره, وعذّبه عندما حرمه من الحبّ, فكان هذا اليأس دليلاً على قسوة الزمان على الشاعر, وحرمانه من الحب طيلة حياته, لذلك نرى أن هذا الحرمان قد غدا معادلاً للسمّ الذي طلب من صاحبه أن يجرعه إياه, بعد أن رأى الشاعر في الموت راحة, وسعادة, أكثر من أن يعيش مقهوراً, ومحروماً من الشعور بإنسانيته.

لقد رصدت الأبيات السابقة حالة قهر يشعر بها نُصيب لتعذّر لقاء محبوبته, لكنها أظهرت حرمان دهره له من المرأة بشكل عام, وإبعاده عنها, إذ إن اليأس الذي بدا على الشاعر ينمّ على معاندة الزمان له, وعلى حرمانه المتكرر من المرأة.

وتظهر في مكان آخر صورة دهره القاهر الذي كان يحول دون تمتعه بمَنْ يحب؛ إذ يقول في جارية كان أهلها يحرسونها منه:[27]

وَقَفْتُ لها كَيْمَا تَمُرُّ لَعَلَّني ... أُخَالِسُها التَّسْلِيْمَ إنْ لَمْ تُسَلِّمِ
ولمَّا رَأَتْني والوُشَاةَ تَحَدَّرَتْ ... مَدَامِعُها خَوْفاً ولَمْ تَتَكَلَّمِ
مَسَاكِيْنُ أَهْلُ العِشْقِ ما كُنْتُ أَشْتَرِي ... جَمِيْعَ حَيَاةِ العاشِقِيْنَ بِدِرْهَمِ

تجلت صورة الزمان القاهر للشاعر في القصيدة, من خلال حالة الكبت التي يعيشها مع من يحب, وقد كشفت محاولة الشاعر رؤية محبوبته خلسةً عن القلق, والخوف اللذين يعانيهما في الحب, وعكست حياة القمع المفروضة عليه, وعذابه الصامت بفعل تلك الحياة.

وقد كانت دموع محبوبة نُصيب تجسيداً حقيقياً للقهر الذي يحسه الشاعر, والذي أذاقه إياه الدهر, وتصويراً لعجزه أمام جبروت الزمان, إذ رصدت صورة المحبوبة التي تقف باكيةً دون أن يكون لها حول أو قوة, الألم الذي يلفها, ويلف الشاعر, والعذاب الذي يتحملانه, فكان هذا الصمت الذي يسيطر عليها وهي تبكي دليلاً على العجز, وعدم امتلاك القدرة على المجابهة, والتحدي.

ولعل الحسرة التي خرجت من الشاعر في البيت الأخير تدل على استسلامه لقوة الزمان, وعلى اعترافه بعجزه أمام هذه القوة, فشعرنا أن هذه الحسرة تتعدى كونها حسرةً على ما أصاب الشاعر ومحبوبته في القصيدة, لنراها تعبر عن معاناة نُصيب الدائمة في الحب, فبدت هذه القصيدة صورةً مصغرة عن حياته الغرامية الفاشلة, والتي أبى الزمان أن يجعلها مستقرة, أو أن يمنحه فيها الدفء, واللقاء, وربما كان تصوير الشاعر حياة العاشقين في هذا البيت بالشيء المادي المحسوس الذي لا يشتريه بدرهم, ينمّ على حقده على هذه الحياة, ونحن نعذره في ذلك, لأنه لم يعرف فيها سوى الحرمان والعذاب.

---

[27] – **المرجع السابق نفسه, ص131.**

أخالسها: الخَلْس: الأخذ في نُهْزَةٍ ومخاتلة, وخلسْتُ الشيء واختلسته ... إذا استلبته (اللسان, مادة خلسَ , مجلد6 , ص 65) .

تحدّرت: تحدّر: تنزّل (اللسان, مادة حدرَ, مجلد4 , ص 172) .

ومن ناحية أخرى, كانت الأبيات تصور حياة نُصيب, ومَنْ مثله من الموالي أو العبيد؛ الذين يعيشون حياة قلقة, يملؤها الخوف, والترقب, إذ لا يستطيعون أن يعيشوا الحب خوفاً من أسيادهم, وعندما يذيقهم زمانهم القهر, يعبرون عن عذابهم منه بصمتٍ, دون أن يرفعوا أصواتهم عالياً, ليقينهم بعجزهم أمام قوة الدهر .

الخاتمة :

أماطت صورة الدهر في شعر الموالي اللثامَ عن علاقة أولئك الشعراء بدهرهم, إذ أمكننا , من خلالها, التسلل إلى عوالمهم الداخلية, واستنباط العِظات والعِبر التي خبروها جرّاء تلك العلاقة, فرصدت صورة الدهر المتبدّل المتغيّر قلقَ الموالي, واضطرابَهم بعد أن أثقل زمانهم عليهم بتقلبه, فقد بدّل هذا التقلب هناءتهم بؤساً, فجرّعهم الاغتراب, والوحدة بعد حياة تفيض بالأنس والأمان, وجعل أيامهم شقاءً عندما قطع أسباب الوصال مع الأحباب, والأصحاب, كما أرداهم حفرة العجز عندما جعل شمس الشباب تأفُل إلى غير عودة بإيصاله إياهم إلى سن الكهولة, الأمر الذي حدا هؤلاء الشعراء إلى أن يجهروا بشكواهم من الدهر, مسلّمين بقوته, وبقدرته على اللعب بمصائر الخلق على الرغم من كل المحصنات التي يتستر بها المرء لردع هذه القوة, والوقاية من غدرها.

وقد وضحت صورة الدهر القاهر في البحث حالة الجفاء التي كانت تسود العلاقة بين الشعراء الموالي ودهرهم, فتجلت هذه الصورة في إحدى ملامحها في وصمة الفقر التي وصمهم دهرهم بها, إذ عدّوها لعنة زمانهم الذي قهرهم بها, فكابدوا لأجلها الشقاء والتغرب, كما شكلت العاهة الجسدية عند بعضهم ملمحاً آخر من ملامح صورة الدهر القاهر, في حين أن حرمانهم الحب كان من أكثر الصور التي عكست قهر دهرهم لهم, إذ ضنّ الدهر على بعضهم بتلك المشاعر, فجعلهم فقدانها يشعرون باقترابهم من ساعة الأجل .

لقد كانت مشكلة الولاء سبباً بارزاً في تحسس الموالي قسوة دهرهم, فهي التي كانت تحول – في معظم الأحيان – دون انسجام كثير منهم وواقع الحياة الجديدة, وهذا ما دفع بعض شعرائهم إلى الهرب في شعرهم من حاضرهم المؤلم إلى الماضي الذي رأوا فيه ملاذاً يمنحهم بعضاً من القوة, أو إلى طلب الموت الذي كانوا يرون فيه راحتهم, وخلاصهم من عذاب الدهر, وعناده.

المصادر والمراجع :

1-ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت.

2-أبو زيد, علي إبراهيم, الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، دار المعارف, مصر, ط1, 1981م.

3-الأصفهاني, أبو الفرج, الأغاني, إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط1 , 1994.

4-أمين, أحمد, فجر الإسلام, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ط7, 1955.

5- الأندلسي, أحمد بن محمد بن عبد ربه, العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط2 ، 1953.

6-بكار, يوسف حسين, شعر إسماعيل بن يسار, دار الأندلس, بيروت, ط1, 1984.

7-بكار, يوسف حسين, شعر زياد الأعجم, دار المسيرة , ط1, 1983.

8-الحموي, ياقوت, معجم البلدان, دار صادر, دار بيروت, بيروت.

9-الدوري, عبد العزيز, مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت, ط1, 2005م.

10- الزركلي, خير الدين, معجم الأعلام, دار العلم للملايين, لبنان, ط17, 2007 .

11- السامرائي, ماجد أحمد, شعر ثابت قطنة, وزارة الثقافة والإعلام, بغداد, 1968.

12- سلوم, داود, شعر نصيب بن رباح, مطبعة الإرشاد, بغداد, 1967.

13- الشايب, أحمد, أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ط8, 1973م.

14- عطوان, حسين, الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1974م.

15- الفراهيدي, أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد, تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي, مؤسسة دار الهجرة, ط2, 1409هـ.

16- القيرواني, ابن رشيق, العمدة, تح: محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الجيل, بيروت, ط4, 1972 .

17- مورو, فرانسوا, الصورة الأدبية، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، دار الينابيع, دمشق, 1995م.

18- هلال, محمد غنيمي, النقد الأدبي الحديث, دار الثقافة ودار العودة, بيروت, 1973م.